

الفصل الرابع

دور التيارات الفكرية فى اليقظة القومية

خلال الحكم العثمانى

أولاً: الجزيرة العربية :

تمثل بلاد العرب وحدة متشابهة من بعض الوجوه فالدين الرسمى لهذه البلاد هو الإسلام، واللغة الرسمية لهذه البلاد هى لغة القرآن والحضارة الرسمية فى هذه البلاد هى الحضارة العربية الاسلامية. وقد تأثرت هذه البلاد منذ القرن الثامن عشر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية التى احدثت جدلاً وآثاراً هامة، وانقسم الناس بسببها إلى قسمين ، اقدمهم يرى فيها خروجاً عن الدين ومن هؤلاء سليمان بن عبد الوهاب والآخر رأى فيها التمسك بالدين الصحيح واستمر ذلك حتى تم التحالف بين الدين والسياسة عندما آزر الأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية هذه الدعوة وساندها والواقع ان هذه الدعوة تعد قديمة وجديدة فى وقت واحد، فهى قديمة لانها تدعو الى الاسلام الخالص النقى المطهر من شوائب الشرك والوثنية وهذا ما نادى به الاسلام كما جاء به النبى عليه السلام وجديدة بالنسبة إلى المعاصرين الذين جهلوا العديد من أمور الدين، واراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل منهم قوما يعودون بالاسلام إلى أصوله الأولى وقد ايقظت هذه الدعوة نفوس العرب، ووضعت أمامهم المثل الأعلى فى وحدة الكلمة، ولققت أنظارهم الى أن الجهاد لا يتم بالسيف فحسب بل بالقلم واللسان أيضاً، ومن هنا ناضل اتباع الدعوة عن مذهبهم واخذوا يقرأون كتب السلف فى التفسير والحديث والتوحيد والفقہ لكى يلتمسون الأدلة على آرائهم، وكانوا ينشرون الكتب القديمة التى يرجع اليها الناس فى التماس الأدلة والبراهين، ومن هنا عادت الحياة القوية إلى مذهب أحمد بن حنبل فنشرت رسائل وكتب عديدة لابن تيمية وتلميذه ابن القيم، واستفاد العالم الاسلامى من هذه الحركة الفكرية استفاده واضحة وفى اثناء ذلك قام الشعراء من أهل نجد يفتخرون بالفتوحات التى تمت على ايدى اتباع الدعوة، وكان لهذه الاشعار نغمتها العربية الأصيلة التى يحمل فيها اصحابها ما يجيش فى نفوسهم من عزة وطموح إلى المثل الأعلى ، والرغبة الواضحة فى احياء الأدب القديم .

وإذا كان محمد على قد نجح فى اضعاف هذه الدعوة من الناحية السياسية فانه لم يستطع القضاء عليها حيث استأنف رجالها أنشطتهم بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ ومضت نهضتهم الدينية فى سبيلها ثم تبعتها نهضة سياسية بسطوا من خلالها نفوذهم على نجد والحجاز .

ومع تمسك النجديين بالمحافظة على التراث فان الحركة التجديدية التى اتتهم من العراق ومصر استطاعت النفاذ اليهم، ومع ذلك فمن يقرأ الشعر النجدى الجديد يجد له شخصية مميزة عن الاشعار الوافدة من العراق أو مصر (١) .

والجدير بالذكر أن الآثار الفكرية التى نتجت عن الجدل بين أنصار الدعوة ومعارضيهما قد امتدت آثارها إلى اليمن حيث نهض بعض مشايخها بالدفاع عن مذهبهم على حين قام فريق آخر بالدفاع عن الدعوة السلفية، مما أدى إلى انعاش الحركة العقلية فى بلاد اليمن .

(١) طه حسين: ألوان، القاهرة، دار المعارف ١٩٥٢ ص ٥٠٠.

ثانياً : التيارات الفكرية وعوامل اليقظة القومية فى بلاد الشام :

دأب ابراهيم باشا أثناء الحكم المصرى فى بلاد الشام (١٨٣٢-١٨٤٠) على تشجيع العلم وترقية الضباط الذين أثبتوا مقدرتهم على التعلم كما قام بتطبيق نظام التعليم الابتدائى على غرار نظام التعليم فى مصر فانشأ المدارس الابتدائية فى كثير من المدن كما اهتم بطبع الكتب العربية ونشرها بين الناس فأعلن لموظفى الحكومة فى بلاد الشام استعداد ديوان المدارس لبيع كتب مطبوعة بولاق، فطلبوا الكثير منها مثل قانون الصناعة ، وعقرب الساعة وكتاب الحكمة، وعلم الحساب، وتاريخ امريكا وتاريخ الاسكندر، وتاريخ المصريين ، والجغرافيا الطبيعية ، وغيرها من الكتب ونتيجة لأن أحدا لم ينتبه لأهمية كتاب تاريخ ابن خلدون أمر ابراهيم باشا بتوعية أهالى بر الشام بأهمية هذا الكتاب ، وإلى جانب ذلك فقد شجع البعثات التبشيرية على مزاوله انشطتها (١) مما أدى الى زيادة نشاط هذه البعثات خاصة الفرنسية والامريكية وتساعد التنافس بينهما من أجل اكتشاف كنوز اللغة العربية وحياء التراث العربى، ومساعد على نشوء حركات فكرية حديثة خاصة وأن هذه البعثات أخذت تزاوّل دورها خاصة فى المجال الثقافى فأقام الامريكويون مدارس فى لبنان وبيروت وبيت المقدس، كما انشأوا مدرسة خاصة لاعداد المعلمين هذا إلى جانب قيامهم بإنشاء الكلية السورية البروتستانتية فى عام ١٨٧٦ (الجامعة الامريكية فى بيروت فيما بعد) (٢) كما احضر الامريكويون آلات الطباعة الحديثة، وفتحوا مدارس لتعليم البنات ثم أخذوا فى طباعة الكتب اللازمة لتلاميذ المدارس التى اسسوها وترجموا الانجيل إلى العربية، واستعانوا ببعض الأدباء العرب مثل ناصيف اليازجى ، وبطرس البستاني فى تأليف الكتب، وقد شجع الحكم المصرى فى بلاد الشام هذه البعثات على نشر الثقافة العربية الحديثة، وعلى وضع الأسس الأولى للاهتمام بالتراث العربى مما ساعد على نشوء الشعور القومى ، وقد ادى ازدياد نشاط البروتستانت الامريكان إلى تزايد انشطة البعثات التبشيرية الكاثوليكية وبصفة خاصة الجزويت، واستمر التنافس بين الفريقين فأسس الجزويت، المدارس فى بيروت وزحله ثم فى حلب ودمشق ، كما انشأوا جامعة سان جوزيف لمنافسة الكلية البروتستانتية وإلى جانب ذلك فقد كان للجزويت مطابعهم الخاصة مما ساعد على نشر الكتب. وهكذا أتيح للبعثات التبشيرية فرصة الاطلاع والتنقيب فى تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم. وهذا يفسر لنا الدور الضخم الذى لعبه كل من ناصيف اليازجى وبطرس البستاني فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى احياء الدراسات العربية، وابراز الفكرة القائلة بأن للعرب حضارة قبل الاسلام تم ازدهارها فى ظل الاسلام، وأن المسيحيين لعبوا دورا حلقا فى بناء الحضارة العربية بجانب المسلمين .

ومما سبق يتضح ان نشر التعليم فى بلاد الشام اشتركت الادارة المصرية بقيادة ابراهيم باشا فى تشجيعه خاصة وانها انشأت المدارس، وشجعت البعثات التبشيرية على الاستمرار فى أعمالها .
وفيما يلى نعرض لأهم شخصيتين سيطرت اعمالهما على الحياة الفكرية فى بلاد الشام وهما ناصيف اليازجى وبطرس البستاني .

ولد ناصيف اليازجى فى "كفر شيما" بلبنان عام ١٨٠٠ وتعلم فى المدارس الموجودة هناك ولكن حبه للاطلاع جعله يبحث عن المعرفة أينما وجدت فلجأ إلى المخطوطات المحفوظة فى الاديرة ونسخ الكثير

(١) أسد رستم: ادارة الشام روحها وهيكلها واثرها ضمن مجموعة اجنات ذكرى البطل الفاتح التى نشرتها الجمعية التاريخية ص٢٧

(٢) عماد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ص٢٦٤

منها، ودرس على القساوسة ثم تعمق في دراسة الأدب العربي، ورأى ضرورة العمل على نشره بين أبناء بلاده .

وقد استعان أعضاء البعثات الأمريكية باليازجي في حركة التأليف، وإلى جانب ذلك عمل اليازجي في ديوان الأمير بشير الشهابي نحو ١٢ عاما ونال شهرة واسعة لدرجة أن منزله أصبح كالمندى الأدبي. واستمر اليازجي يدعو إلى بعث الأدب العربي القديم حتى تجمع حوله العديدين من انصار هذه الفكرة . أما بطرس البستاني فقد ولد في عام ١٨١٩ في قرية بدير القمر من اسرة لبنانية نبغ منها طائفة من الأدباء والعلماء والاساقفة وقد ظهر نبوغه وهو يتلقى العلم، وكان محبا للغات فاحسن الفرنسية والاطالية والسريانية واللاتينية كما نبغ في المنطق واللغة العربية والتاريخ والفلسفة والقانون واللاهوت، وبعد أن اضطريت الاحوال في بلاد الشام بعد خروج ابراهيم باشا منها ونفى الأمير بشير تحول بطرس إلى المذهب البروتستانتى وبدأ في التقرب من البعثات التبشيرية الأمريكية فاستعانوا به في تعليم العربية وترجمه بعض الكتب والقيام بالقاء المحاضرات. وعمد بطرس إلى احياء آداب اللغة العربية، كما ألف معجم اللغة العربية بعنوان " محيط المحيط " اختصره بعد ذلك في كتاب بعنوان " قطر المحيط " كى يستفيد منه طلاب المدارس والى جانب ذلك فقد أنشأ " مجلة الجنان " في عام ١٨٧٠ وجراند "الجنة" "والجنينة " ونفير سورية " كما عمل دائرة للمعارف مرتبة على حروف المعجم Encyclopaedia أصدر منها ستة مجلدات .

ولترسيخ مبدأ الحرية الدينية والتسامح الدينى أنشأ بطرس البستاني مدرسة عالية سماها المدرسة الوطنية، وتخرج فيها طائفة من الادباء ^(١) وهكذا ساعدت شخصية اليازجي والبستاني على تطور الحياة الفكرية في بلاد الشام وعلى نشر الوعي بين الناس وايضاح مزايا الاحتكاك بالتقافة الغربية لهم مما أدى بعد ذلك إلى نشر البحوث والقاء المحاضرات وتشكيل الجمعيات العلمية فتكونت "جمعية الفنون والعلوم"، كما تكونت بعد ذلك " الجمعية الشرقية " عن طريق البعثات التبشيرية الفرنسية كما ظهرت الجمعية العلمية السورية، التي اقتصرت عضويتها على العرب من المسلمين والمسيحيين والندروز ومن خلالها نبتت بذور الفكرة الوطنية وتحولت الحركة العربية من الدور الأدبي إلى طور العمل السياسى ممثلا في جمعية بيروت السرية التي تألفت في عام ١٨٧٥ وأخذت في التنديد بمعاوىء الحكم التركى ^(٢) واستمرت هذه الجمعية تتخذ مواقف معادية للدولة العثمانية ثم لحركة الاتحاد والترقى بعد ذلك وقد ساعدت سياسة الاتحاديين وخصوصا دعوتهم الى التتريك على بلورة مفهوم القومية العربية وقد وضع ذلك في المؤتمر العربي الأول الذى انعقد بباريس في عام ١٩١٣ بهدف "حفظ كيان الأمة العربية، وازاله العقبات فى طريق ارتقانها ^(٣) " والذى دارت جلساته حول حقوق العرب فى الدولة العثمانية والحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال، وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ^(٤) .

^(١) حرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٤، القاهرة مطبعة الفحاله ١٩١٤ ص ٢٩٧-٢٩٩، وأيضا خير الدين الزركلى: الأعلام،

المجلد الثانى ص ٥٨

^(٢) محمد انيس: مرجع سابق ص ٢٦٥

^(٣) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر: المؤتمر العربي الأول المنعقد فى القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بباريس القاهرة ١٩١٣ ص ٥

^(٤) نفسه ص ٧

واستمرت الجمعيات السرية والعلنية تمهد للثورة العربية ضد الحكم العثماني حتى قيام الحرب العالمية الأولى التي اعطت الفرصة الملائمة لبروز القومية العربية إلى حيز الوجود .

ثالثاً: التيارات الفكرية في مصر:

كان للحملة الفرنسية على مصر الأثر البارز في فتح البلاد على مصاريعها للحضارة الأوروبية، كما كان لعلمائها الفضل في ظهور الحركة العلمية النشيطة التي قامت بدراسة أحوال مصر، فلم تمر الأيام معدودات على دخول بونابرت القاهرة حتى أصدر أمراً في الثماني من أغسطس ١٧٩٨ باختيار بيت يتسع لاعداد مكان " لمطبعة جيش مصر" وانشاء معمل كيميائي، ومكتب للعلوم الطبيعية واقامة مرصد وصالة للمجمع العلمي .

وفي ٢٢ من اغسطس من نفس العام أصدر بونابرت أمراً بتأسيس المجمع العلمي على أن يكون من اغراضه العمل على اشاعة نور العلم والعرفان في مصر ، ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشرها ^(١) وقد كان لاطلاع المصريين على هذه الأعمال أكبر الأثر في معرفة مدى تقدم اوربا العلمي فيذكر عبد الرحمن الجبرتي الذي كان شاهداً عياناً لهذه الفترة انه كان لدى الأوربيين تطلع زائد للعلوم، وعندهم الآلات المتقنة الصنعة العجيبة التراكيب والغالية الثمن ^(٢) " وإلى جانب ذلك فقد أحضر بونابرت معه ثلاث مطابع احدهما عربية والأخرى فرنسية والثالثة يونانية، واستخدم المطبعة العربية في اصدار البيانات والمنشورات للشعب المصري "لتبليغهم مقاصده ورغبته في اكتساب قلوبهم ^(٣) كما لجأ الفرنسيون إلى نشر اخبارهم في الصحافة فانشأ بونابرت صحيفتين هما " لوكورييه دي ليجبت " .

La Decade Egyptienene و لاديكاد أجبسين Le Courier De L' Egypte

ويعد انشاء هاتين الصحيفتين بمثابة نقطة تحول في تاريخ النشر ليس في مصر وحدها بل وفي تاريخ الشرق كله فهما أول جريدتين عرفتهما مصر الحديثة، وأول جريدتين عرفهما الشرق بأجمعه ^(٤) . كما أمر بونابرت برسم خريطة تفصيلية للقطر المصري والنف لجنتين للكشف عن آثار مصر الفرعونية في الصعيد ورسمها ودراستها، وكان للجنرال كليبر الفضل في تنظيم جهود العلماء لاجراء كتاب "وصف مصر" حيث أسس لجنة ضمت عدداً من العلماء وزعت عليهم الدراسات والبحوث المتعلقة بتاريخ مصر الحديثة وجغرافيتها وأحوال أهلها وعاداتهم ، وثرواتها الطبيعية وغير ذلك ^(٥) . ثم جاء عصر محمد علي حيث افتتحت المدارس على اختلاف درجاتها ، وأرسلت البعثات إلى أوروبا وتم استخدام الخبراء والاختذ من الحضارة الأوروبية وكان من ابرز مظاهر ذلك انشاء مدرسة الألسن في عام ١٨٣٦ ، وانشاء مطبعة بولاق في عام ١٨٢٠ لطبع لوائح الحكومة ومنشوراتها وفي هذه المطبعة

(١) محمد فؤاد شكرى: عبد الله حالك مينو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ ص ٦٢٢-٦٢٣

(٢) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج٣ القاهرة ، المطبعة الاميرية ص ٣٤-٣٥ .

(٣) الرفاعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ص ٨٤ .

(٤) محمد نجيب أبو الليل: الصحافة الفرنسية في مصر منذ نشأتها وحتى نهاية الثورة العربية ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٥٣

(٥) شكرى : مرجع سابق ص ٦٤٣

ظهرت باكورة الكتب المترجمة والمؤلفة التي ارسمت دعائم هذه النهضة^(١) وفي هذه المطبعة طبعت الوقائع المصرية وهي الجريدة الرسمية للحكومة وقد صدر العدد الأول منها في الثالث من ديسمبر ١٨٢٨ وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم اقتصر على اللغة العربية .

وخلال هذه الفترة عاد أعضاء البعثات الذين أوفدهم محمد على إلى الخارج فأدوا لبلادهم خدمات جليلة ، وكان من أبرزهم رفاعة الطهطاوى فى التاريخ والجغرافيا والادب، ومصطفى بهجت فى الهندسة والرياضيات ومحمد على البقلى فى الطب والجراحة واستمر التيار الفكرى فى مصر بعد محمد على يتأخر تارة ويتقدم اخرى حتى جاء عصر اسماعيل فازدادت صلات مصر بأوربا خاصة بعد افتتاح قناة السويس حيث نزل اليها الكثير من الأوربيين مستقلين امكانياتها وظروف الضائقة المالية التى حاقت بالبلاد، وشاركوا فى حياتها الثقافية وشاركهم فى ذلك أيضا بعض الشوام الذين تخرجوا من المدارس الاجنبية وضاقوا ذرعا بالحكم العثماني فوفدوا الى مصر واسهموا فى النهضة الصحفية والأدبية بها، وتصادف أن نزل الى مصر فى ذلك الوقت جمال الدين الافغانى الذى أعطى دفعه قويه لزعماء الاصلاح بها، وسرعان ما أخذت الصحف السياسية فى الظهور، فاقترنت العواطف السياسية المتأججه فى نفوس المصريين فى تلك الفترة بعاطفة دينية تهدف إلى الاصلاح .

رابعاً : التيارات الفكرية فى المغرب العربى :

تأثرت الحياة الفكرية فى بلاد المغرب العربى بالتأثير الاندلسى إلى حد كبير، حيث تم اقتباس بعض مظاهر الحياة الثقافية والحضارية الاندلسية وبعد وصول العثمانيين الى هذه البلاد لم تبذل الجهود لتطوير التعليم بل ازداد الاعتماد على النقل، وعملية الشروح، كما انتشرت الزوايا والطرق الصوفية، ومع ذلك فقد استطاعت الحركة الفكرية فى هذه البلدان ان تكون منارة لالهاب الروح الوطنية فى نضالها ضد الاستعمار والمستعمرين فيما يلى نعرض لذلك .

١- مراكش :

من المعروف أن العثمانيين لم يصلوا إلى مراكش لذلك كانت ملتقى وفود العلماء القارين من تونس والجزائر اليها كما أصبحت فاس بمثابة مركز ثقافى لفكر علماء المغرب الأقصى بأكمله يدرس فيه العلوم العقلية والنقلية معا وقد شملت الحركة الفكرية الاستفادة من علماء عصر النهضة فى أوربا عن طريق ترجمة مؤلفاتهم وقد لعبت هذه الحركة دورها فى تنشيط حركة الوعى الوطنى لدى المغاربة خلال دفاعهم عن حرية بلادهم ووقوفهم ضد الاستعمار، وذلك عن طريق المؤلفات والاحاديث التى تحض على ذلك .

٢- تونس :

اصيبت الحركة الفكرية فى تونس بصدمة عنيفة بعد دخول العثمانيين الى هذه البلاد، ولكنها سرعان ما عادت إلى نشاطها بعد تشجيع بعض الولاة لها وقد وجد فى تونس العديد من المراكز الثقافية تتمثلة فى المساجد والزوايا والمدارس وعلى رأس هذه المراكز نذكر جامع الزيتونة الذى حاول الاتراك جعله منارة للمذهب الحنفى بدلا من الماكي ولكنهم وجدوا صعوبات شديدة وفى هذا الجامع كان يتم تدريس علوم الطب والفلك والحساب بجانب العلوم الدينية والادبية ، كما ازدهرت الحركة العلمية بالقيروان ،

^(١) الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١ ص ٥٦٩-٥٧٠.

وتأسست العديد من الجوامع التي كانت بمثابة مدرسة لتعليم الناس^(١) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك الزوايا التي كانت تشتمل على أقسام التعليم ، والتصوف العملى الذى يبنى على تبسيط المعرفة وتهذيب الأخلاق ، ومعظمها كان يحتوى على مكتبة تشمل نوادر المخطوطات

وقد لعبت الحركة الفكرية دورها فى ابراز الروح الوطنية، والتصدى للحركة الاستعمارية والدفاع عن الحرية والعدالة، والتضحية من أجل الوطن .

٣- الجزائر :

ارتبطت الحركة الفكرية فى الجزائر بالحالة الدينية فانتشرت الطرق الصوفية التى التزم اتباعها بالطاعة العمياء والانقياد الكامل لشيخ الطريقة ومن أبرز هذه الطرق نذكر القادرية والرحمانية والتيجانية وغيرها^(٢) .

وقد ازدهرت هذه الطرق بعد احتلال فرنسا للجزائر حيث وجدت من الاستعمار كل تشجيع نظرا لما فيها من غموض وخرافات تبعد المسلمين عن فهم دينهم بصورة صحيحة. وإلى جانب ذلك فقد استمرت حركة التبشير قدما مستنده الى دعم الحكومة الفرنسية لها أما عن التعليم فكان فى وضع سئ نتيجة لحرص فرنسا على نشر الجهل بين الجزائريين حتى لا يتجهون إلى المطالبة بالاستقلال ويعود الفضل فى ظهور حركة الاصلاح الدينى فى الجزائر إلى عدة عوامل منها دعوة الشيخ محمد عبده إلى الاصلاح ، واطلاع الجزائريين على آرائه فى مجلة المنار التى كانت تصل اليهم، ومنها الثورة التعليمية التى أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه التى كان يلقتها لتلاميذه^(٣) فى المساجد بقسطنطينة وغيرها، ومنها عودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم فى مصر والحجاز وتونس وغيرها وقيامهم بنشر الدعوة الى الاصلاح فى بلادهم .

وقد ظل هذا التيار الفكرى يؤدى دوره فى ايقاظ روح الجهاد حتى كانت مشاركة الجزائريين فى حروبهم التحريرية ضد فرنسا مثارا للفخر والاعتزاز ومن خلالها تمكنت الجزائر من انتزاع استقلالها فى عام ١٩٦٢ .

٤- ليبيا :

نشطت الجماعات والطرق الصوفية بغرض الاحياء والاصلاح، ومن ابرز هذه الجماعات كانت الدعوة السنوسية التى هدفت إلى الاعتراف من منابع الاسلام الأصلية ومركز الحياة فى السنوسية هى الزاوية التى كانت بمثابة مؤسسة للحياة الروحية والزراعية والتجارية والسياسية، بمعنى انها ليست طريقة صوفية فحسب بل كانت طريقة للحياة فى مختلف مناحيها. وقد لعبت هذه الحركة دورها فى مقاومة الايطاليين حتى تمكن رجالها من زحزحتهم عن ليبيا^(٤) .

(١) عثمان الكعاك : محاضرات فى مراكز الثقافة فى المغرب ص ١٠١

(٢) مختار فيلالى: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما فى الجزائر خلال العهد العثماني.

(٣) مازن مطبقاني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص ٥٨

(٤) نورا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال ص ٧٢ .